

التربية الإسلامية في الأندلس

بقلم / الدكتور محمد عبد الحميد عيسى

رئيس قسم العلوم الاجتماعية بكلية التربية

مقدمة : توجد صلة وثيقة بين النظام التربوي بكافة عناصره والمستوى الاقتصادي والفكري والنظام السياسي في أي بلد من بلدان العالم ، ولذلك فانه من الطبيعي ونحن نبحث عن سر التقدم العلمي ومن ثم الرخاء الاقتصادي ، والتناغم الاجتماعي لأمة من الأمم نجد لزما علينا ان نبحث في نظامها التربوي ، والأسلوب المتبع في اعداد ابنائها للمستقبل .

ولقد بلغت الأندلس شأوا بعيدا في مجال التقدم الفكري والحضاري وقد مدت للحضارة الانسانية نماذج عظيمة من المفكرين والأدباء والفلاسفة والعلماء والفقهائها وغيرهم من أساطين العلم والفن ، وكان لنظامها التعليمي وأسلوب التربية في هذه البلاد الدور الأكبر في هذا الرقي الاجتماعي ، وهذا التطور الاقتصادي ، وهنئذا الازدهار العلمي الهائل ، مما يجعله جديرا بالدراسة والبحث واستجلاء كل مناحيه .

الاطار التاريخي للبحث :

استقر المسلمون في الأندلس منذ دخولهم هذه البلاد عام ٧١١ م واستمروا فيها الى ان تم الاستيلاء على غرناطة ، آخر مملكة اسلامية على أرض الأندلس وذلك في يناير عام ١٤٩٢ م .

ويعد المؤرخون الى تقسيم هذه الحقبة التاريخية الطويلة الى فترات زمنية محددة ، لها معالمها الواضحة ، ورغم صعوبة الفصل بين فترات التاريخ ، الا ان الغالبية العظمى من مؤرخي الأندلس ، العرب وغير العرب ، يتبعون ذلك التقسيم المجازي ، وهو على النحو التالي :

أولا : عصر الولاة ، وهي الفترة التي تلت الفتح الاسلامي للأندلس واستمرت من حوالي عام ٩٥ هـ الى عام ١٣٨ هـ وتميزت هذه الفترة بالباكرة بوضع الأسس الأولى لنشر اللغة العربية والاسلام في الأندلس ، كما أنها حاولت نشر الاسلام خلف جبال البرت ، علاوة على كونها الفترة التي نبتت فيها البذور الأولى للحضارة الأندلسية ، ومنها انطلقت حركة البناء والتطوير والتكوين .

ثانيا : عصر الازهار : وتبدأ هذه الفترة بتولي الأمير عبد الرحمن الداخل عرش الأندلس في عام ١٣٨ هـ ، وتمتد الى عام ٣١٦ هـ حين أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة على الأندلس ، وتميزت هذه الفترة بالتطور الحضاري السريع وبرز شخصيات أندلسية كبيرة في مجالات فكرية شتى من أمثال النقيميحيى بن يحيى الليثي ، وبقى بن مخلد

والعالم عباس بن فرناس ، والمفكر محمد بن عبد الله بن مسرة ، والمغنى أبي الحسن على بن نافع المعروف بزيار والسفير الحكم الفزالي .

ثالثا : عصر الخلافة : وهو العصر الذهبي للمسلمين في الأندلس ، وقد حكم خلاله ثلاثة من الشخصيات القوية العظمى ، الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم الثاني ، ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر ، ويمتد هذا العصر طيلة القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

لقد نجح حكام الأندلس إبان هذه الفترة في توحيد الدولة الأندلسية وتدعيم سلطة الحكومة المركزية في قرطبة ، ولم يكن نجاحهم في المجال السياسي فحسب ، بل كان النجاح الأكبر في المجالات الاقتصادية حتى زاد دخل الدولة زيادة كبيرة ، وأصبح ثلث هذا الدخل يكفي للمصاريف العامة ، ويدخر الثلث لمواجهة متطلبات المستقبل ، وفي المجالات العمرانية التي وجه إليها ثلث دخل الدولة تساما ، وتمثل الاهتمام العمراني في بناء المساجد والقصور وخاصة مسجد قرطبة الجامع ومدنية الزهراء حتى غدت مدينة قرطبة " أم القرى " وقرارة أولى الفضل والتقى ووطن أولى العلم والنهى " .^(١)

أما أهم ما ارتقت إليه الأندلس على عصر الخلافة فقد كان في المجال الفكري والأدبي ، حيث قام عبد الرحمن الناصر ، وربما للمرة الأولى بتكليف ابنه الحكم الثاني للقيام بمهمة رعاية العلم والعلماء في مملكته وقام الحكم بأعمال عظيمة حتى غدت مدينة قرطبة عروس الغرب كما كانت بغداد عروس الشرق ، وقال فيها الشاعر ابن شخير :

باربع فاقت الأصار قرطبة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان تتان والزهراء ثالثة

(٢)

والعلم أفضل شيء وهو رابعها

ومما لا شك فيه أن الاستقرار السياسي ، وما يتبعه من نمو اقتصادي ، وازدهار

فكري يولد أيضا التسامح الفكري والعقائدي بين طوائف المجتمع ، ويقف على روح التعصب والكراهية ويدفع بالجميع إلى التعاون والعمل من أجل الرقي الانساني ، والتطور الحضاري ، ولهذا برز في هذا العصر علماء كبار من المسلمين والمسيحيين واليهود ، أدوا دورهم العظيم في رقي الحضارة الأندلسية .^(٤)

واستمرت فترات التاريخ الأندلسي بعد ذلك لتشمل فترة ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين إلى آخر حكم المسلمين في الأندلس مملكة غرناطة .

المرحلة التعليمية الأولى :

بدأ الاهتمام بتعليم الأطفال في الأندلس بعد السنوات الأولى من الفتح الإسلامي ، وهناك نصوص تاريخية تؤكد قيام مكاتب تعليم الأطفال في الأندلس في حدود سنة ١٢٠ هـ ٧٣٨ م^(٥) ثم زاد انتشار هذه المكاتب باستمرار على عهد بنى أمية في الأندلس وقد قام الحكم المستنصر بالله ببنيان سبعة وعشرين مكتبا في مدينة قرطبة وحدها لتعليم اولاد الفقراء مجاناً ، وحبس عليها حوانيت السراجين للانفاق على المعلمين من دخلها^(٦) ولقد وجدت هذه المكاتب في كافة الأحياء بالمدن والقرى ، وتدل كثرة أسماء المعلمين الواردة في كتب التراجم على الانتشار الواسع لهذه المكاتب في كافة أنحاء الأندلس .

ولقد استخدمت المساجد في احيان كثيرة كمكان لتعليم الأطفال وأقيمت المكاتب في جنباتها أو في فضاءها الخارجي ، وعلى الرغم من معارضة الفقهاء لاتخاذ المساجد مكانا لتعليم الأطفال الا أن أهل الأندلس لم يلتزموا بذلك التزاما حرفيا ، ولعل السبب في استخدام المساجد كمكان لتعليم الأطفال يرجع الى أن كثيرا من خدمة المساجد كانوا يحترفون هذه المهنة مما جعل من السهل عليهم ممارسة العملين في وقت واحد .^(٧)

كما وجدت المكاتب في المنازل أو في المحلات أو في أى مكان يصلح لكى يقوم المعلم فيه بتعليم الأطفال .

ويبدأ الأطفال في الذهاب الى هذه المكاتب في سن السادسة أو السابعة ، ويظلون يتعلمون بها الى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر تقريبا .

وكانت المهمة الأساسية لهذه المؤسسة التعليمية الأولى تتركز في تعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، الذى كان تعليمه وحفظه هو الهدف السائد في هذه المرحلة في كافة أنحاء العالم الاسلامى حيث يرى ابن خلدون . . . " أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم " ^(٨)

لكن أهل الأندلس تميزوا عن باقي أنحاء العالم الاسلامى بانهم قد اهتموا بأن يخلطوا في تعليمهم القرآن بعض المواد الأخرى مثل رواية الشعر ، وبعض العربية واعطوا اهتماما خاصا بتعليم القراءة والكتابة وتحسين الخط حتى اصبح خطهم مميذا ، علاوة على تميزهم في مجالات اللغة العربية والأدب على ما يعترف بذلك ابن خلدون .^(٩)

كان الأُطفال يذهبون الى المكتب فى الصباح الباكر ، ويظلون هناك الى ان ينتصف النهار ، ويعودون الى المنزل للغذاء والراحة ثم يعودون الى المكتب فسترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل حيث ينتهى اليوم الدراسى . وأيام التعليم خمسة أيام : السبت الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء وصبيحة الخميس فقط " وكان للأُطفال نصف يوم الخميس وطول يوم الجمعة عطلة للراحة ، بالإضافة الى أيام عيد الفطر الثلاثة وعيد الانحرى الاربعة وبعض أيام المناسبات " (١٠) ويتلخص التعليم فى هذه الفترة فى قيام المعلم بقراءة آية من الآيات ثم يقوم الأُطفال بتقريدها حتى يحفظونها ، ثم ينتقلون الى آية أخرى وهكذا ، وفى نفس الوقت يبدأ الأُطفال فى تعلم القراءة والكتابة ، ولذلك كان على الاطفال أن يحملوا معهم الواحهم ومطبرهم ، ولقد كانت تلك الألواح تصنع من الحجر أو الخشب ، وكان من السهل محوها بالمالء أو بقطعة من القماش . (١١)

على الرغم مما ورد فى كثير من كتب التراث الاسلامى عن سوء حالة معلمى الكتاب فى بعض انحاء العالم الاسلامى الا اننا نجد أن معلمى الأندلس قد تمتعوا بمكانة اجتماعية عالية ومن بينهم معلمو الكتاب ، ولقد كان من مظاهر تقديرهم ان لقب " معلم كتاب " قد تصدر ترجحاتهم وبيان فضائلهم فى كتب التراجم الأندلسية . (١٢) علاوة على ذلك فان المستوى الثقافى لمعلمى الأندلس كان مرتفعاً نسبياً ، ويفسر ذلك كثرة الاشارات الواردة عنهم فى المؤلفات الأندلسية بل ان بعضهم كان يحضر مجلس الخليفة عبد الرحمن الناصر ويتلقى جوائزهم . (١٣)

ولقد استقر رأى فى الأندلس منذ البداية على دفع أجرة للمعلمين وهناك من الوثائق ما يؤكد قبول الأجر على التعليم فى الأندلس منذ عصر الولاة (٧١٤-٧٥٦م) وان وجد بعض المعلمين ممن كانوا لا يتقاضون اجرا من الصبيان ، وكانوا يعتمدون على منح الحكام أو رواتبهم التى حددتها لهم الدولة . (١٤)

أما بالنسبة للبنات فلم تكن تذهب الى المكتب وانما كانت تتعلم فى المنزل حيث تولى تعليمها اما أهلها أو معلمات كن يستأجرن لتعليم البنات ، وتشير كتب التراجم الأندلسية الى عدد من النساء الأندلسيات كن يقمن بالتدريس لهن ابنة حزم المعلم التى كانت تؤدب مع والدها واخيها فى دار واحدة . (١٥)

والخلاصة التى يمكن ان نستنتجها من نظام التعليم الأولى فى الأندلس ، أن الاطفال اذا ما انتهوا من دراساتهم الأولى فانهم يتمتعون بميزتين ، الأولى المعرفة السليمة بدنيهم والمعرفة السليمة بلغتهم ، وكان هذا هو الاساس الذى بنى عليه الأندلسيون تعليمهم بعد ذلك .

المرحلة التعليمية الثانية :

تبدأ هذه المرحلة بعد انتهاء الأطفال من دراستهم في المكتب ، وتتميز بأن مكانها الاساسى كان في المسجد حيث يجلس العلماء والمؤدبون للتدريس ومن ثم اصبح المسجد أهم مؤسسة تعليمية في الأندلس على ما كان عليه الحال في كافة أنحاء العالم الاسلامى .

انتشرت المساجد في الأندلس انتشارا واسعا حيث تناقصت الخلفاء والأمرء والعلماء والاثرياء في بناء المساجد حتى وصل القول بأن عدد المساجد في قرطبة وحدها قد وصل الى ١٣٨٢٠ مسجد . (١٦) مما يعنى انتشار أماكن التعليم في الأندلس انتشارا واسعا جدا .

وبالإضافة الى المساجد هناك المنازل ، والقصور والمكبات ، والرباطات وكلها اماكن ساهمت في نشر التعليم في الأندلس .

المنهج التعليمى فى المرحلة الثانية :

كان المنهج التعليمى الذى يتلقاه الشباب الأندلسى ^{متسجما} مقسما بالمرونة والاتساع ، فهو وان كانت العلوم الدينية هي الأساس الأول الذى اهتم به الأندلسيون الا أن الفرصة كانت متاحة لتلقى علوم أخرى غير العلوم الدينية فكان هناك كم واسع من المعارف يمكن للطلاب ان يقبلوا عليها ويتعلمونها ، ودراسة كتب التراجم الأندلسية ^{كبين لنا} أن ما كان يمكن ان يقبل الطلاب على تعلمه كان كثيرا الى درجة يمكن ان نقول بها انها كانت تغطى كل جوانب الثقافة المعروفة في ذلك الوقت ، واذا كان الطفل في المرحلة الأولى قد وجد نفسه مقيدا بمنهج معين يتمثل في حفظ القرآن ومعارف العرب ، فانه في المرحلة التعليمية الثانية قد وجد الفرصة ليكون ثقافته ومعارفه في المجالات التى توافق ميوله وقدراته العقلية ، واذا كان الطفل قد وجد نفسه في المرحلة الأولى ملتزما بالمكتب يغدو اليه يوميا مرتبطا بساعات حضور وانصراف ، فانه في هذه المرحلة الثانية قد تخلص من هذه القيود ، ووجد امامه حلقات المعلمين في المساجد وفي غيرها يختار من بينها الأستاذ الذى يميل اليه والمادة التى يهواها ، والوقت الذى يناسبه ، ويمكن لنا ان نجمع العلوم التى كان يقبل عليها الطلاب في المجموعات التالية

١ - العلوم الدينية وتشتمل على مواصلة دراسة القرآن والحديث ، وما نجم عنهما من فروع كثيرة متشعبة مثل التفسير ، والقراءات ، والفقه وعلم الحديث ، ولقد تميزت بلاد الأندلس باهتمامها بالعلوم الدينية

وخاصة فى القراءات القرآنية والتفسير ، وظهر فى هذا المجال علماء اندلسيون كبار بلغت شهرتهم المدن الاسلامية الكبرى كالقاهرة ومغداد ، وبعضهم قام بالتدريس فى هذه البلاد ومنهم اليسع بن عيسى الغافقى المتوفى ٥٧٥ هـ / ١٢٩١ م الذى سكن الاسكندرية ثم رحل الى مصر (القاهرة) فاشتمل عليه الناصر صلاح الدين . (١٢) والقاسم بن فيرة الشاطبى المتوفى ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م ، استوطن مصر ، واشتهر اسمه وبعد صيته ، وقصدته الطلبة من كل النواحي ، وكان اماما ، علامة ، ذكيا كثير الفنون ، منقطع النظر ، راسا فى القراءات ، حافظا للحديث ، بصيرا بالعربية . تصدر للاقراء فى مصر ، فعظم شأنه ، وبعد صيته ، وانتهت اليه الرئاسة فى الاقراء ، وتصدر للاقراء فى المدرسة الغاضلية . (١٨)

٢- العلوم اللغوية :

حظيت العلوم اللغوية باهتمام الاندلسيين الذين أولوها عناية كبيرة ، وخاصة الحكام والامراء الذين ركزوا اختيارهم لمناصب الوزارة والكتابة والامور العامة من بين البارزين فى هذه العلوم . ولعل أحد اسباب اهتمام الاندلسيين باللغة العربية وعلومها يرجع الى المجهود الذى كان من الواجب بذله لتعريب جميع سكان شبه الجزيرة اليبيرية واذا كانت مجموعة العلوم الدينية قد وجدت اهتماما من المسلمين بفرض المحافظة على الدين ونشره فقد كان من الطبيعى ان لاتلقى اهتماما من غير المسلمين لعدم حاجتهم الى تعلمها ، فعلى العكس من ذلك حظيت العلوم اللسانية باهتمام كبير من غير المسلمين ، وحرص كل من المسيحيين واليهود على تعلمها واجادتها حتى كان المستعربون من اليهود والنصارى الذين حافظوا على دينهم الاصلى يتكلمون اللغة العربية بفصاحة وطلاقة حتى الفوا بها ، ونظموا بها الشعر ، واصبحت هى لغة الحياة العائلية ولقد ساعد على ذلك تعريب الدواوين والرسائل والمعاملات التجارية مما اجبر السكان جميعا على اختلاف اديانهم على تعلم اللغة العربية ، ولقد بدأت الدراسات اللغوية فى الاندلس مبكرا جدا حين رحل الطلاب الاندلسيون فى عصر الولاة وبدايات عصر الامارة وعادوا الى الاندلس محملين بكتب اللغة ثم تطورت هذه الدراسات تطورا كبيرا بمقدّم بعض العلماء المشاركة الى الاندلس حتى كان مستوى اللغة فى الاندلس مرتفعا جدا اعترف به أبو على القالى (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠١ - ٩٦٧ م) أحد علماء اللغة البارزين الذين قدموا الى الاندلس على عهد الخليفة

الناصر لربيع الله .

وكان من نتيجة اهتمام الأندلسيين بالعلوم اللغوية ، انها كانت من أهم ما يتعلمه الطلاب الأندلسيون منذ بداية حياتهم التعليمية ، ومن ثم برز فسى الأندلس عدد جم من علماء اللغة اثار اليهم العالم الأندلسى الكبير ابى بكر الزبيدى فى كتابه " طبقات النحويين " (١٩) .

٣- العلوم العقلية :

يقصد بذلك هنا العلوم الغير متعلقة بالدين أو اللغة والتي حظيت باهتمام كبير لدى الأندلسيين اعترف به المستشرقون وكان للأندلسيين فضل كبير فى نقل هذه العلوم الى أوروبا مما ساهم فى قيام النهضة بها ولست فى حاجة هنا الى ابراز شهادات قيمة اعترف بها مؤرخوا العلوم فى أوروبا من امثال " خوان برنيت " و " غوثايت برانس " و " سانشيت بيريت " و جورجى سارتون " ، وتنقسم هذه المجموعة من العلوم الى عدة افرع منها : العلوم الطبية ، العلوم البحتة ، العلوم الفلسفية ، والعلوم الاجتماعية .

ولقد برز فى هذه العلوم من علماء الأندلس عدد جم من الأطباء والرياضيين وعلماء الفلك والهندسة والفلسفة الخ .

وكان من اعلام هذه العلوم ايضا علماء من المسيحيين واليهود ويكفى ان نشير الى ابن حسداى مستشار الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه ابو الفضل ، وسليمان بن جيرول المتوفى ١٠٥٢م ، ويوسف بن النخيلة المتوفى ١٠٥٥م . وغيرهم من غير المسلمين كثيرون .

اوقات التعليم :

لم يكن هناك وقت ثابت محدد للتدريس ، وانما ارتبط ذلك بوقت المعلم على وجه التحديد ، فهناك معلمون كانوا يدرسون صباحا ، وآخرون بعد صلاة العصر ، ولكن بما ان الطالب كان يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة فى ذات الوقت ، ويذهب الى أكثر من معلم فى نفس اليوم ، فان الوقت الدراسى كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله .

حلقات التعليم :

كان المعلم يجلس الى جوار عمود من أعمدة المجلس ، ويشكل طلابه من حوله حلقة ، وتعرف هذه الحلقة باسم المعلم الذى يشغلها ، وبعد وفاة المعلم يقوم يشغل المكان ابنه أو أحد طلبته النباه ، وكان من العادة ان يكون فى الحلقة

معيد او قارىء يقوم بشرح بعض ما غرض من كلام استاذ ، او قراءة النص الذى سيتولسى
الاستاذ شرحه وتفسيره . (٢٠) وكذلك قيامه بحفظ النظام فى الحلقة ، ولم يكن عدد
طلاب الحلقة العلمية ثابتا ، وانما كان يختلف من حلقة الى اخرى وذلك حسب مكانة
الاستاذ والمادة التى يقوم بتدريسها ولقد وضعت الكثير من القواعد الاخلاقية والاصول
الواجب الالتزام بها فى الحلقة ولقد جاءت هذه القواعد الواضحة فى كتاب لابن حزم
الاندلسى يعرف بالاخلاق والسير . (٢١)

المعلمون :

كان من الضرورى لمن يقوم بالتدريس فى هذه المرحلة من ان يكون عالما بمادته
معتمدا على اصول وروايات صحيحة ، والا تعرض للنقد وابتمد عنه الطلاب . وتبيين
دراسة كتب التراجم ان هؤلاء المعلمين كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى عال ، ومعرفة
موسوعية حتى وصفوا بالقلب ضخمة منها انه " أعلم الناس " او " كان فى حفظه آية من
آيات الله . . . " الخ

اما من الناحية الاجتماعية ، فقد عاش هؤلاء فى مستوى طيب سواء بين الناس
او الحكام ، وساعد هم علمهم على تكوين طبقة اجتماعية متميزة أصبح لها وزنها ومكانتها
حتى غدا اختيار القائمين على الامور العامة من بينهم .

ومن ناحية الاجر فيمكن لنا ان نقسم المعلمين الى فئات ثلاث :

أ - فئة تتقاضى اجرا من الجراية التى كانت تجريها الدولة عليهم او من الاجر
الذى يدفع من الاحباش

ب - فئة تتقاضى اجرا من الطلبة بناء على عقد يعقد بين المعلم ووالد الطالب
او وليه .

ج - فئة تتقاضى اجرا من الوظائف التى تسند اليها وخاصة فى المساجد وهناك
من المدرسين من كانوا يقومون بالتدريس مجانا على اساس رانه عمل خيرى . (٢٢)

واعنى المعلمون بملايسهم غاية فائقة وخاصة حين يقومون بالتدريس حتى كان حبيب بن الوليد
يسمع الناس فى جامع قرطبة وهو يلبس الوشى الهشامى . (٢٣)

وقامت العلاقة بين المعلم وطلابه على درجة طيبة من الاحترام ، فكان على الاستاذ
ان يعتنى بمصالح الطالب ، ويعامله بما يعامل به اعز اولاده من الحنو والشفقة والاحسان
اليه . حتى نمت العلاقة الى درجة ان المعلم كان يسمح لطلابه بمرافقته للتنزه فى ايام
الاجازات حيث يمنحهم من الحرية ما لا ينعمون به اثناء الدرس . (٢٤) ، كما ان الطلبة
احياوا اساتذتهم جبا شديدا لدرجة انه بموت الاستاذ ، يقوم الطلبة بمرافقة نعشه ، وقراءة

تعليم النساء :

لا تتحدث المصادر كثيرا عن الكيفية التي تعلمت بها السيدات في الاندلس لكن هذه المصادر تبين بكل وضوح ان المرأة الاندلسية نالت حظا كبيرا من التعليم وبلغت درجة عالية من المعرفة ، فكان منهن العالمات بال نحو والادبيات والطبيبات وغير ذلك مما يدل على تعلم المرأة .

وتبين لنا المصادر الاندلسية ان المرأة قد تلقت تعليمها في المقام الاول بين افراد اسرتها سواء اكان ذلك الأب أو الجد أو الاخ أو العم أو الخال أو الأم أو الجدة وغير هؤلاء من أهل العلم من الأسرة ، ولدينا أمثلة كثيرة على وجود سيدات تلقين العلم في أسرهن ووصلن الى درجة عالية من التقدم .

الى جانب ذلك كانت هناك معلمات متخصصات في تعليم البنات في الاندلس فيقال عن حفصة الزكونية (توفيت ١١٨٥/٥٨١م) بانها كانت أستاذة وقتها وانتهت الى ان علمت النساء في دار المنصور . (٢٧) وهناك غيرها كثيرات .

وقد قامت المرأة في الاندلس بتعليم الرجال ، ومن هؤلاء امة الرحمن بنت احمد المتوفاة ٤٤٠هـ / ١٠٤٧م . (٢٨) ورائية مولاة الامام عبد الرحمن الناصر (٢٩) واشراق السويدية التي كانت تدرس كتاب النوادر لأبي علي القالي ، والكامل للمبرد وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا ، وتتكلم غسما . (٣٠)

وتبين لنا المصادر ايضا ان النساء كن يتلقين العلم على ايد المعلمين الرجال وأنهن كن يذهبن الى المساجد ، فقد ورد في ترجمة محمد بن علي الفخار المتوفى ٧٢٣هـ / ١٣٢٣ انه : استوطن مالقة ، وتصدر للاقراء بها ، وكان يفتي النساء في المسجد الى ما بعد العصر . (٣١) كما ان سعيد بن عثمان المقرئ المتوفى ٤٤٤هـ / ١٠٥٢ قد علم ريحانة الفراءات القرآنية . ولا يمكن أن تغفل دور العلماء فاقدى نعمة البصر في تعليم النساء حيث يرد ذلك كثيرا في كتب التراث الاندلسي .

هناك الجوارى اللواتي كن يتعلمن ويتشققن على يد مواليهن ، او يعهد بهن الى من يؤدبهن ، ولقد كانت بعضهن ذات ثقافة عالية شاملة متنوعة حتى ليعجز فرد واحد عن تزويدهن بتلك الألوان المختلفة من الثقافة ، مما يدفع على الاعتقاد بأن اسيا دهن كانوا يبعثون بهن الى المؤديين والاساتذة ، او كانوا يجتوون لهن بأولئك المؤديسين والاساتذة . (٣٢)

المرحلة التعليمية الثالثة :

من الصعب جدا القول بوجود فاصل وانمح بين المرحلتين التعليميه الثانية والثالثة ، وذلك لأنهما متشابتان تماما ، وان تميزت المرحلة الأخيرة بالتعمق والتخصص ، وارتفاع سن طلبتها ، وازدياد مكانة الشيوخ الذين يقصون للتعليم عليها . الى جانب ذلك كله فيمكن اعتبار المرحلة الثالثة بأنها مرحلة استكمالية يحاول الطالب فيها ان يستكمل دراساته التي قد يعتقد انه لم يستكملها من قبل ، كما أنها عملية تجديد مستمرة لمعلومات المتعلم . ، وذلك فهي لا تتميز بسن محددة أو حتى ترتبط بمكان معين .

أماكن الدراسة :

تنوعت أماكن الدراسة في هذه المرحلة تنوعا كبيرا ، على ماكان عليه الحال في المرحلة المتوسطة ، وظل المسجد هو المكان المفضل دائما لحلقات العلم التي كان يعقدها كبار الشيوخ ، وان تبنأت المساجد الجامعة مكانة خاصة في هذا المجال . وأهمها على الاطلاق مسجد قرطبة الجامع الذي يمكن ان نعتبره بمثابة أول جامعة في غرب العالم الاسلامي ، وأول جامعة في أوروبا ، والمنارة الحقيقية للعلم في تلك العصور . والمدرسة ، وخاصة في الأندلس ، لم تكن تضم بين مدرسيها الاكابر علماء العصر ، ويسعى الطلاب^{اليها} لتحصيل درجة عالية من العلوم . وهناك أماكن أخرى كثيرة ساهمت في تطور الحركة العلمية في الأندلس ، واثرت فيها تأثيرا كبيرا ، ومنها :

- المجالس العلمية : سواء التي كان يعقدها الأمراء منذ بدايات الأُسرة الأموية حتى سقوط غرناطة ، أو التي كان يعقدها كبار العلماء والشخصيات الأندلسية وكان الحوار فيها عميقا متخصصا بين علماء متعلمين متخصصين .
- أما المكتبات فقد انتشرت انتشارا واسعا في اسبانيا الاسلامية فظهرت مكتبات القصور الخلافية ، وكانت أعظمها مكتبة الحكم الثاني ثم مكتبات أمراء الموحدين ، ومن ناحية أخرى ، اهتم كبار الناس وعظمتهم بالحصول على الكتب ، واقامة مكتباتهم الخاصة ونتيجة لذلك حدثت حركة اعارة نشطة جدا وتم تبادل الكتب بين الطلاب والمعلمين حتى اضحت المكتبات مكانا عاما يساهم في تعميق المعرفة ، ومكانا للحوار والمناظرة .
- وثمة أماكن أخرى ساهمت بصورة فعالة في النشاطات التعليمية ، وفي اللقاء بين المعلمين والمتعلمين ، مثل حوانيت الوراقين ، وأماكن تجليد الكتب

كما ان مصانع الكاغد التى نشأت بشاطبة ، والتى لم يكن لها نظير فى معمور الأرض
والتي عمت المشارق والمغارب على سطح المعمورة كما يقول الادريسي . (٣٣)

المدرسة فى الاندلس : من القضايا الهامة التى يثار حولها الجدل قضيتة
ظهور المدرسة فى الاندلس ، ولا همتها الخطيرة فى الحياة التعليمية فاننا لا بد
وان نتوسع فى الحديث عنها قليلا

ويرى كثير من المؤرخين ان المدارس قد ظهرت فى بلاد المغرب فى الوقت
نفسه الذى ظهرت فيه فى بلاد المشرق الاسلامى مع اختلاف بسيط من ناحية الشكل
او الهدف (٣٤) .

ويؤكد الدكتور عبد الهادى النازى انه " بعد ثلاث سنوات فقط من تأسيس المدرسة
النظامية فى بغداد عرفت مدينة فاس مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يسردون
بقصد الدراسة من سائر البلاد ، وحدد وجود مدرسة للمرابطين عام ١٠٩٦/٤٦٢ م
بناها الأمير يوسف بن تاشفين بعد دخوله المدينة حوالى التاريخ المذكور ، وأن طلاب
هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتى قتلوا جميعا ، ولذا سميت
بمدرسة الصابرين ، وأن أطلال هذه المدرسة ما زالت ماثلة الى الآن " (٣٥) . ويؤكد
ذلك أيضا د . حسن على حسن بقوله : " وجه ولاية الأمازيغ بالمغرب الأقصى اهتمامهم
الى التعليم ، ونشأ عن ذلك أن بنوا عدة مدارس فى اجزاء متفرقة من البلاد ، وذلك
لتخريج المتعلمين ، وكانت أولى المدارس التى أنشئت فى عهد يوسف بن تاشفين تسمى
مدرسة الصابرين " (٣٦)

وكذلك اهتم الموحدون ببناء المدارس ، وأول من فعل ذلك هو الخليفة
عبد المؤمن بن على حين بنى مدرسة ملحقة بقصره لتخريج الحفاظ ، وقام المنصور
الموحدى ببناء عدة مدارس فى انحاء متفرقة من البلاد يقول عنها ابن ابي زرع : " وبنى
— أى المنصور — المساجد والمدارس فى بلاد افريقية والمغرب والاندلس " (٣٧) .

ولعب بنو مرين دورا أساسيا فى نشر المدارس والاهتمام بها فى جميع
انحاء المغرب وكانوا أكثر نشاطا وأوفى همة فى ذلك المجال (٣٨) .

وشارك الأمازيغ فى بناء المدارس ، كما شاركوا فى بناء المساجد
فترى ان على ابن محمد بن على بن يحيى بن عبد الله الغافقى — كان رجلا جاعا للكتب ،
منافسا فيها ، مغاليا فى اثنائها وربما أعمل الرحلة فى التماسها ، حتى اقتنى منها
بالابتياح والانتساح كل علق نفيس ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها فى مدرسته التى
أحدثها بقرب باب القصير ، أحد أبواب بحر سبتة ، معين لها من خاز أملاكه ، وحدد

الحديث وسمع في رجب من عام خمس وثلاثين وستمائة (١٢٣٧) م (٣٩) .

وليس من المعقول ان تقف بلاد الاندلس بمعزل عن ذلك التطور الهام في مجال الحركة التعليمية رغم تأكيد ابن سعيد أن " ليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة " (٤٠) . حيث نجد بعض الاشارات الدالة على ظهور المدارس في الاندلس في فترة باكرة ومنها قول ابن فرحون المتوفى ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م عند حديثه عن أبي علي الصدقي المتوفى ٥١٤هـ / ١١٢٠م : " ثم عاد الى الاندلس - وذلك عام ٤٩٠هـ ١٠٩٦م - واستقر بمدرسة مرسية ، ورحل اليه الناس " (٤١) ، كذلك رواية ابن أبي زرع عن السلطان الموحدى أبي يعقوب بن عبد المؤمن ٥٨٠ - ٥٩٥هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩م ، فقد ذكر أنه : " حصن البلاد ، وضبط الثغور وبنى المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والاندلس (٤٢) كما بدأت كلمة مدرسة تظهر ضمن اشعار الاندلسيين خلال القرن السابع وخاصة فى رثاء المدن واستصراخ الهم لانقاذها ، ومن ذلك قول ابن الأبار فى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً ان الطريق الى منجاتها درسا
يقول :

يا للمساجد عادت للعدا بيعاً وللنداء غداً اثاءها جرساً
لهفى عليها الى استرجاع فائتها مدارس للمثانى اصبحت درسا (٤٣)
ويقول شاعر آخر لم يسمه المقرئ :

بابس مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الغلال صباحها فيخاله الرائي اليه مساءها (٤٤)

ثم بدأت الأمور تتضح بالنسبة لمدارس الاندلس فى القرن السابع حيث ظهرت المدارس المؤكدة ومنها :

مدرسة مرسية : وهى مدرسة اقامها الأمير المسيحى الفونسو العاشر بعد استيلائه على المدينة عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م للعالم المسلم الشهير محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، لكى يعلم فيها أبناؤ الديانات الثلاث ثم أغلقت هذه المدرسة بانتقال الفقيه المسلم السى غرناطة قبل نهاية القرن السابع (٤٥) .

مدرسة غرناطة الأولى :

وأسكنه فى أعدل البقع بحضرتة . وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطب والتعاليم وغيرها ، اذ كان لا يجارى فى ذلك ، وكان قوى المعارضـة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين متابى حضرتة ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم لتمكته ونبالته (٤٦) .

مدرسة مالقه :

من المحتمل ان تكون مالقه قد شهدت أكثر من مدرسة (٤٧) . ولكن الوثائق تشير الى مدرسة صوفية أنشأها الفقيه محمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى المعروف بأبى عبد الله الساحلى ٦٧٨-٧٥٤هـ / ١٢٧٩-١٣٥٣م حيث بناها من مال أعطاه اياه بعض الاغنياء من وزراء الدول بالمغرب وأقامها فى الجانب الغربى من المسجد الأعظم وأوقف عليها الرباع ، وابتنى غيرها من المساجد (٤٨) وترى الدكتور ماريا خيسوس ريبيرا ، انه ربما كانت هذه المدرسة هى أول مكان فى الأندلس يمارس فيه التعليم بعيدا عن المسجد (٤٩)

المدرسة النصرىة بغرناطة :

أشهر مدارس الأندلس والمغرب عامة بناها السلطان الغرناطى أبو الحجاج يوسف الأول عام (٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) ، وأشرف على بنائها الحاجب رضوان النصرى المعظم ، واجمع المؤرخون على مكانتها وعظمتها التى غطت على ما كان قبلها ، وما زالت بعض اجزاء هذه المدرسة بنقوشها الاسلامية الرائعة باقية فى مدينة غرناطة حتى يومنا هذا بجوار الكاتدرائية الكبرى (٥٠)

طلاب هذه المرحلة :

كان طلاب هذه المرحلة من المتقدمين فى السن نسبيا ، اذ أنهم انما واصلوا الدراسة والاستماع الى الشيوخ والعلماء جبا فى العلم ورغبة فى الاستمرارية وأملأ فسى الحصول على مرتبة العلماء المعروفين ، ولذلك كانوا جميعا من أهل العلم والمعرفة ومن سبق لهم حضور مجالس العلماء والشيوخ والمؤدين فى المساجد والمدارس وغيرها من دور العلم المتاحة فى ذلك الوقت ، ونستطيع ان نتبين مستوى الطلاب العلمى ونوعيتهم من القاء نظرة على بعض تراجم علماء هذه المرحلة ، فيقال عن الأديب الراوية أبى عبد الله محمد بن سليمان النفزى المعروف " بابن أخت غانم " أن : أصله من مالقة ، وسها سكناه ، ولكنه لزم قرطبة كثيرا وكان شيخا مسنا من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب . أخذ عنه الناس هذين العلمين كثيرا ودرسهما عمره بغير أحب

وسمع منه كتب الحديث والغريب وحمل عنه جملة من المشايخ والنبلاء ، لعلو سنده
ومعرفته (٥١) . وإذا كان الطلاب عند هذا العالم هم من المشايخ والنبلاء
فإننا نجد هم عند عباس بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدى المتوفى ٨٦٥ هـ /
١٤٦٠ م من نبيها مدينة قرطبة (٥٢) ، أما الامام محمد بن محمد الانصارى
السرقسطى الذى كان من أحفظ الناس لمذهب مالك فقد حضر عليه عدد كبير من جللة
العلماء منهم ابن الأزرقي (٥٣) .

شيوخ هذه المرحلة :

كان علماء هذه المرحلة ممن يشار اليهم بالبنان علما وخلقا ومكانة في قههم ،
وكان الحكام وجمهور الناس يحرصون على ان لا يحتل مقعد التدريس في المساجد الجامعة
والمدارس الا من انتهت اليه المهارة في العلم والدين في وقته ، وكانت تلك مرتبة تهفو
اليها نفوس هؤلاء القوم فلم يدخروا وسعا في الارتقاء بمعارفهم وعلومهم الى درجة
حصلت الناس على اختلاف طبقاتهم — على احترامهم احتراما مهيبا . والقاء نظرة على
تراجم هؤلاء العلماء تعطينا فكرة واضحة عن مستواهم العلمى ، والى القارى الكريم
بعض الترجمات من عصور مختلفة :

أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا ، المعروف بالاقليلى ، من أهل قرطبة
المتوفى ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م : كان من أئمة النحو واللغة ، وله معرفة بالكلام على معانى
الشعر ، وشرح ديوان المتنبي شرحا جيدا ، وهو مشهور ، وكان متصدرا بالأندلس
لاقراء الأدب ، وكان حافظا للأشعار ، ذاكرة للأخبار ، وأيام الناس (٥٤) .

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحارسى المتوفى ٥٤٢ هـ /
١١٤٧ م " فيه محدث مشهور ، أديب ، نحوى ، شاعر ألف في التفسير كتابا ضخما
أرسى فيه على كل متقدم (٥٥) . أما ابو على عمر بن محمد بن عبد الله الأزدى المعروف
بالشليبين المتوفى ٦٤٠ هـ فقد كان أسند من بقى في المغرب ، وكان في العربية بحرا
لا يجارى وجيرا لا يبارى ، تصدر لاقراء النحو نحو من ستين عاما (٥٦) . والامام
ابو محمد الأنصارى السرقسطى المتوفى ٨٦٥ هـ كان عالم غرناطة ومفتيها ، كما كان من
أحفظ الناس لمذهب مالك (٥٧) .

وكان أهل الأندلس حريصين على ان يتصدر مساجد هم الجامعة أمثال هؤلاء
العلماء الأجلاء ، ومن ذلك دعوة أهل مالقة لعالم اللغة الكبير أبى على محمد بن
عبد المجيد الأزدى الرندى المتوفى ٦١٦ هـ / ١٢٨٩ م للتدريس في مسجد هم والاقراء
به بعد وفاة أبى القاسم السهيلي فاجابهم الى ذلك ، ولم يفرقهم الى حين وفاته (٥٨)
كما ان محمد بن يحيى بن على بن مفرج الأنصارى المتوفى ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م قد جلس

وأما محمد بن إبراهيم الأوسى المتوفى ١٣١٥/٧١٥م من أهل مرسية فقد أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر ، من مدينة بجاية فانتفع الناس به (٦٠) . وعلى بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكنانى المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٢٣٠م كان أوجد أهل زمانه علما وتخلقا ، وتواضعا وتفنا ، ورد الى غرناطة مستدعى عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢م . وقعد بمسجد ها الأعظم يقرئ فنونا من العلم ، من قراءات وفقه وعربية وأدب (٦١)

وكان العلماء المختارين للتدريس فى المدارس من تلك الطبقة الرفيعة ، فمنهم الحسين بن محمد بن منيرة المعروف بأبى على الصد فى المتوفى ٥١٤ هـ / ١١٢٠م صاحب مدرسة مرسية ، كان امام عصره فى علم الحديث ، وآخر أئمة فى الأندلس ، كان حافظا للحديث ، وأسما رجالة وعلمه ، وكان اماما فى الفقه (٦٢) .

والشيخ الفقيه محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، الذى بنى له الفونس العاشر مدرسة فى مرسية ، كان حجة فى المعرفة القديمة والمنطق والهندسة والعدد والموسيقا والطب كما كان فيلسوفا وطبيبا ماهرا ، آية الله فى المعرفة بالأسن ، يقرئ الأئم بالسننهم فنونهم التى يرغبون فى تعلمها ، شديد اليأس ، مترفعا ، متعاظما (٦٣)

ومن علماء المدرسة النصرية نجد محمد بن على بن أحمد الخولانى المتوفى ٧٥٤ هـ / ١٣٥٤م أستاذ الجماعة ، وكان رحمه الله ، عاكفا على العلم ملازما للتدريس امام الأئمة من غير مدافع ، مبرز ، امام أعلام البصريين من النخبة منتشر الذكر ، بعيد الصيت عظيم الشهرة ، مستبحر اللفظ ، ويتفجر بالعربية تفجر البحر ، ويستمرل استمرال القطر فقد خالطت دمه ولحمه ، لايشكل عليه منها شكل ولا تشذ منه حجة (٦٤) .

وفوج بن قاسم بن لب ، شيخ شيوخ غرناطة ، كان شيخا فاضلا عالما متفنا ، انفرد برئاسة العلم ، واليه كان المفزع فى الفتوى ، وكان اماما فى اصول الدين وأصول الفقه (٦٥)

نظام الدراسة :

كانت الحلقات التى تعقد هى الوسيلة الشائعة للتدريس حيث يجلس الشيخ مستندين الى جوار عود بالمسجد او المدرسة ، ويلتف حولهم طلابهم يستمعون اليهم . ويرجع اتساع الحلقة او ضيقها الى مكانة الأستاذ نفسه ، ويمكن لنا ان نتصور الاقبال الشديد على حلقات هؤلاء الكبار ، ويبدأ الدرس بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، ثم يأخذ المعلم فى النقاش حسب المادة التى يدرسها ، ولذلك اختلف طرق التدريس فى هذه الحلقات باختلاف المادة العلمية التى يتولى الأستاذ شرحها ، فقد كان أحمد بن عثمان من أهل طليطلة ، المتوفى ٤١٧ هـ / ١٠٢٦م يبدأ المناظرة

الرحلة :

أما أبرز ما يميز الدراسة في هذه المرحلة العالية فكانت الرحلة في طلب العلم من مكان إلى آخر ، والحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة ، وكلما طالت مدة الرحلة وكثر عدد العلماء الذين التقى بهم الدارس زادت مكانته .

وانقسمت الرحلة إلى قسمين رئيسيين ، فهناك الرحلات الداخلية أي داخل الأندلس ، وكانت تحقق لأهلها مكانة عالية لاتقل عن الرحلات الخارجية ، فيقال عن العالم الكبير يوسف بن عبد البر النمري ، المتوفى ٤٠٨هـ / ١٠١٧م . انه : فقيه حافظ مكثر ، عالم بالقراءات ، وبالاخلاق في الفقه ، وسعولم الحديث والرجال ، قديم السماع ، كثير الشيوخ ، على انه لم يخرج من الأندلس ، لكنه سمع من أكبر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ومن الغرباء القادمين إليها (٦٧) . كما أن (أحمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن الجاوي ، كان يقول عنه الضبي : " لم أرى بقرطبة ولا بغيرها من كور الأندلس رجلا يقاسمه في علمه بأصول الدين وفروعه . . . جمع له والده علوم الأرض فلم يحتج إلى أحد ، الا أنه رحل متأخرا للحج " (٦٨) وكانت الرحلة الداخلية قصيرة نسبيا ، وان فضل بعض العلماء أن تطول ما أمكن ، فيرى القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد أنه قال : " لما رحلت إلى قرطبة قرأت على الحافظ أبي بكر - يقصد أبا بكر بن العري - ولزمته ، فسمعت ذات يوم أذكر الانصراف إلى وطني بالمرية ، فقال لي : ما هذا القلق ؟ - أقم حتى يكون لك في رحلتك عشرة أعوام كما كان لي " (٦٩) .

أما الرحلات الخارجية الأندلسية فقد أخذت طريقها من الأندلس إلى باقي أصقاع العالم الاسلامي ، وكان الحج حافزا آخر إلى جانب الحافز العلمي ، مما جعل الرحلة بين الأندلسيين شبه فرض أكيد لكل من كان يرغب في مواصلة تعليمه العالي ، والامثلة على رحلات الأندلسيين كثيرة جدا ، ويكفي للدلالة على رحلات تلك الفترة رحلة القاضي أبي بكر بن العري رحمه الله (٧٠) .

وهناك الكثيرون من الطلاب من قاموا بالرحلتين الداخلية والخارجية معا حيث يبدأ بالأولى ثم يثنى عليها بالرحلة إلى خارج الاقليم .

ولم يكن الطالب يرحل إلى مدينة بغرض التعليم على معلم واحد فقط ، رغم أن شهرة المعلم تجذب الطلاب إلى مدينته مثلما هو الحال على عهد أبي علي الصدفي في مدينة مرسية ، بل ان الطلاب كانوا ينتهزون فرصة وجودهم في مدينة ما للاستماع ولقاء أكبر عدد من شيوخها وعلمائها .

الاجازة الدراسية :

الاجازة في الأصل غمان يعلم الطالب ، وقد رته على نقل هذا العلم وهي شهادة يمنحها الأستاذ لطلابه عند انتهاءهم من دراسة كتاب معين وهي نوعين : شفوية وتحريرية ، والأولى أقدم عهدا من الثانية ولكن مع تطور الأيام فقد تراجعت الاجازة هذا المضمون الهام ، أي كونها غمانا لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه ، واصبحت مجرد شهادة باللقاء والسماع دون أن تعنى اطلاقا مدى تعمق حامل الشهادة أو معرفته بما حدد له في الاجازة حتى لقد ظهرت بعض الاجازات العامة التي تبيح " لمن أحب الرواية عنى من جميع المسلمين من أهل السنة ، ممن هو موجود في هذه السنة " (٧١)

النساء في هذه المرحلة :

شاركت النساء الأندلسيات ببيع طويل في الحركة العلمية العالمية في الأندلس حتى شهد لهن حافظ عصره المقرئ حين ذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولى في البلاغة ، كي يعلم ان البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى في نسائهم وصبيانهم (٧٢) . والامثلة كثيرة على ذلك ومنها أن ولادة بنت المستكفي بالله المتوفاة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م كانت أدبية ، شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناغل الشعراء وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لحرار مصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر (٧٣)

ومريم بنت يعقوب الأنصاري ، كانت أدبية شاعرة جزلة مشهورة وكانت تعلم النساء الأدب ، وتحثمن لدينها وفضلها (٧٤) .

وأم الهنا بنت القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عطية التي كانت حاضرة النادرة ، سريعة التمثل ، من أهل العلم والفهم والعقل ، ولها تأليف في القيسور (٧٥) .

والشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية أستاذة الشواعر في عصرها لكونها تمتلك قوة شعر هائلة ، وأداة مطوعة فنية بوائها تلك المكانة الأدبية ، ولقد ذكرها ابن الخطيب نقلا عن ابن بشكول بأنها كانت أستاذة وقتها (٧٦)

ومن نساء المرابطين ، كانت الحرة حواء أدبية شاعرة جلييلة ماهرة ، وينقل ابن عذارى عن مالك بن وهيب قوله : مرت الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتب والشعراء ، وكانت تحاضرهم فيه ، وكانت ذات نباهة وخطر فاجتمع يوما في ذلك المجلس

ثم يكمل الرواية فيبين مساجلتها لهم الا شععار وتفوقها على الحاضرين .

أما الموحدون فقد أولوا النساء المثقلات على عصرهم التفاتا خاصا ، ومن بنات الخلفاء المثقلات ، زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن وكانت عالمة ، صائبة الرأي فاضلة معروفة بالتفوق على نساء زمانها (٧٨) .

ويرى المستشرق الاسباني خوليان ريبير أن النساء الأندلسيات لم يقف نشاطهن عند حد الدراسة في اسبانيا فحسب ، وانما رحلن الى الخارج ليدرسن كالرجال سواء بسواء (٧٩) .

تعلم غير المسلمين في الأندلس :

تحفل كتب التراجم الأندلسية والمدونات التاريخية بأسماء علماء وأدباء وشعراء من المسيحيين واليهود ، وتشير اليهم على أنهم أعلام كبار في مجالات تخصصهم . كما أوردت هذه المدونات وكتب التراجم نماذج من انتاج هؤلاء العلماء غير المسلمين مكتوبا باللغة العربية بأسلوب راق ومتميز مما يدل على تمكنهم من هذه اللغة تمكنا تاما .

واذا كانت أماكن العبادة في العصور الوسطى هي المؤسسات التعليمية السائدة ، فاذا كان المسلم يذهب الى المسجد لتعلم أمور دينه ، فمن الطبيعي ان يذهب المسيحي الى كنيسته ، واليهودي الى معبده ، ولكن بما أن اللغة العربية كانت هي لغة الثقافة والعلم والأدب فقد كان من الطبيعي ان تكون هي لغة التدريس ولذلك كان طبيعيا ان يكون المعلمون من العرب أو ممن يلقي العلم على العرب .

واذا تصفحنا كتب التراث العربي فاننا نجدنا أمام نماذج من العلماء المسيحيين واليهود وقد غيروا بسهم وافر في علوم العربية حتى تفوقوا في بعض الأحيان على العرب أنفسهم ، ولقد أطنب المقرئ في ابراد نصوص مما قال به أبو الغضل حسدار بن يوسف بن حسداى اليهودى المتوفى ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م والذي " تناول المعارف من طرقها فأحكم علم لسان العرب ، ونال حظا جزيلا من صناعة الشعر والكتابة والبلاغة ، وبرز في علوم الرياسة والفلك والطب ، واتفق علم المنطق " (٨٠) ، وتؤكد هذه النصوص بلاغة حسداى وتفوقه في علم العربية نثرا وشعرا ، اما عن ابراهيم بن سهل الاسرائيلي المتوفى ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م فقد وصفه بأنه شاعر اشبيلية وشاحها ، وانه قرأ على ابن عيسى الشلوين وابن الرباج وغيرهما من علماء المسلمين (٨١) كما يؤكد المقرئ نقلا عن مؤرخين معاصرين ان ابن سهيل " كان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم " (٨٢) .

ويورد المقرئ أدلة كثيرة على ان يهود الاندلس كانوا يشتغلون بعلم العربية وأورد أشعارا رائعة لعدد منهم ، حيث يشير الى ابراهيم ابن الفخار بأنه كان شاعرا ممتازا يقف على قدم المساواة مع الشعراء المسلمين ، ومنهم أيضا الشاعر الياس من المدور اليهودي ، والشاعرة اليهودية قسموت بنت اسماعيل اليهودي والذي كان شاعرا أيضا وكثيرا ما كانا يتنافسان في قول الشعر بالعربية ، وأورد المقرئ نصحا لذلك . (٨١)

أما بالنسبة للمسيحيين فان تعريبهم كان وانحط وجليا بحيث أصبحت العربية بالنسبة لهم هي لغة الحياة اليومية ، ولغة التعبير الأدبي ، وليس ادل على ذلك من شكوى الراهب القرطبي " الفارو " والتي يؤكد فيها اقبال المسيحيين على اللغة العربية وانصرافهم عن اللاتينية .

وهناك اشارات كثيرة تدل على تعلم المسيحيين مع المسلمين في اماكن تعلمهم ، وانهم أخذوا من ثقافتهم (٨٢)

ويقول الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم " لان شك ان كثيرا من نصارى الاندلس من اهل قد تعلموا علوم العربية ، واستعربوا ، مضطرين الى مشاركة المسلمين حياتهم ، رغبة في تقلد المناصب الكبرى في الادارة والدواوين (٨٣)

الى جانب نصارى الاندلس ، فقد تلقى العلم في معاهد المسلمين عدد لا بأس من الطلبة المسيحيين القادرين من خارج الاندلس ، والذين وجدوا في الاندلس المنهل العلمي الوافر الذي مكثهم من ان يعودوا الى بلادهم بعد ذلك محملين بعلمهم جديدة كانت هي الاساس الذي قامت عليه النهضة الاسبانية فيما بعد .

التربية الاسلامية في الأندلس

- (١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٩
- (٢) صاعد الطبقي : طبقات الأمم ص ٨٨ ، محمد عبد الحميد عيسى في كتاب : تاريخ التعليم في الأندلس ، ص ١٠٨ .
- (٣) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣١
- (٤) انظر ما اوردته المقرئ عن الشعراء اليهود البارزين في الأندلس وذلك في نفع الطيب ج ٥ في الصفحات ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ وغيرها .
- (٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٠ .
- (٦) ابن حيان : المقيس ، تحقيق الحجى ، ص ٢٠٧
- (٧) عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ص ٢٢٢
- (٨) ابن خلدون : المقدمة ج ٣ ص ١٢٣٩
- (٩) نفس المصدر ج ٣ ص ١٢٤٢ ، ١٢٤٣
- (١٠) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم في الاسلام ص ٧٠
- (١١) Ribera: La Enseñanza entre los musulmanes Españoles, p. 34
- (١٢) انظر ابن القوس - علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٨ .
- (١٣) عيسى : المصدر المشار اليه ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .
- (١٤) الخولى : الفكر التربوى في الأندلس ص ٦٩ .
- (١٥) ابن الأبار : التكملة للكتاب الصلة ج ١ ص ٩٢ .
وابن بشكول : بالصلة ج ٢ ص ٦٩١ .
- (١٦) حسين مؤنس : وصف جديد لقرطبة ص ١٦٦ .
- (١٧) الذهبي : معرفة القراء الكبار ص ٤٣٧ .
- (١٨) نفس المصدر ص ٤٥٧
- (١٩) انظر في ذلك تاريخ التعليم في الأندلس من ص ٣٠٩ الى ص ٣٢٥
- (٢٠) السيوطى : بغية الوعاة ص ٣١٣ .
- (٢١) قام العالم الاسبانى ييجيل أسبن بلاشيو سبترجمة هذا الكتاب الى اللغة الاسبانية .

- (٢٢) انظر تاريخ التعليم في الاندلس ص ٢٦٠ - ٢٦٤ .
- (٢٣) ابن حيان : المقتبس ، طبعة ١٩٤٠ ص ١٩٤
- (٢٤) الصنبي ، بغية الملتبس ص ٥٩
- (٢٥) ابن بشكوال : الصلة ح ٢ ص ٤٨٤ .
- (٢٦) ابراهيم على القلس : التربية والتعليم في الاندلس ص ١٨١ - ١٨٣ .
- (٢٧) ابن الخطيب - الاطاحة ح ١ ص ٤٩٢ .
- (٢٨) ابن بشكوال : الصلة ح ٢ ص ٦٩٤ .
- (٢٩) نفس المصدر ح ٢ ص ٦٩٣
- (٣٠) السيوطي : بغية الوعاة ح ١ ص ٤٥٨ .
- (٣١) ابن الخطيب ، الاطاحة ح ٢ ص ٩١ -
- (٣٢) ابراهيم القلس - التربية والتعليم في الاندلس ص ١٨٢
- (٣٣) الادريسي : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .
- (٣٤) سعيد اسماعيل على ، معاهد التربية الاسلامية : ٣٧٩ .
- (٣٥) عبد الهادي التازي ، مسجد القرويين : ١٢١/٢ ، محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم في الاندلس : ٢٧٧ .
- (٣٦) حسن على حسن ، الحضارة الاسلامية في المغرب والاندلس : ٤٠٠ - ٤٠١ .
- (٣٧) حسن على حسن ، الحضارة الاسلامية في المغرب والاندلس : ٤٠١ (نقلا عن ابن زرع ، الانيس المطرب في روض القوطاس : ١٥٧) .
- (٣٨) سعيد اسماعيل على ، معاهد التربية الاسلامية : ٣٨١
- (٣٩) ابن الخطيب ، الاطاحة : ١٨٨/٤
- (٤٠) المقرئ ، نفع الطيب : ٢٢٠ / ١
- (٤١) ابن فوحيون ، الدياج المذهب : ١٠٥ .
- (٤٢) ابن ابن زرع ، الانيس المطرب في روض القوطاس : ٢١٧
- (٤٣) المقرئ ، نفع الطيب : ٤٥٧/٤ .
- (٤٤) المصدر نفسه : ٤٨٠/٤
- (٤٥) ابن الخطيب ، الاطاحة : ٦٧/٣ - ٦٨ . المقرئ ، نفع الطيب : ١٣٠/٤ .
- (٤٦) ابن الخطيب ، الاطاحة : ٦٨/٣ .

- (٤٧) محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم فى الاندلس : ٣٨٧ .
- (٤٨) ابن الخطيب ، الاحاطة : ١٩١/٣ - ١٩٣ .
- (٤٩) محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم فى الاندلس : ٣٨٨ .
- (٥٠) عن المدرسة والحاجب رضوان كتبت المصادر التالية :
ابن الخطيب ، الاحاطة : ٥٠٦/١ - ٥١٢ .
- محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم فى الاندلس : ٣٩٠ وما بعدها .
- محمد كمال شبانه ، يوسف الاول : ٩٨ .
- (٥١) القاضى عياض ، الغنية " فهرست شيوخ القاضى ٥٠٠٠ ، ١٢٧ .
- (٥٢) المراكشى ، الذيل والتكملة ، (السفر الخامس) : ٤٨٦/٢ - ٤٨٧ .
- (٥٣) ابن الأزرقي ، بدائع السلك فى طبائع الملك : ١٤/١ .
- (٥٤) ابن خلكان ، وفیات الاعيان : ٣٣/١ - ٣٤ .
- (٥٥) الضمى ، بغية الملتمس : ٣٨٩ .
- (٥٦) ابن فرحون ، الديباج المذهب : ١٨٥ - ١٨٦ .
- (٥٧) ابن الأزرقي ، بدائع السلك فى طبائع الملك : ١٤ .
- (٥٨) رضا عبد الجليل الطيار ، الدراسات اللغوية فى الاندلس : ٣٢ .
- (٥٩) السيوطى ، بقية الوعاة : ٢٦٥/١ .
- (٦٠) ابن الخطيب ، الاحاطة : ٦٩/٣ .
- (٦١) المقرئ ، نفع الطيب : ٥٠٧/٥ .
- (٦٢) ابن فرحون ، الديباج المذهب : ١٠٤ .
- (٦٣) المقرئ ، نفع الطيب : ١٣٠/٣ ، وابن الخطيب ، الاحاطة ٦٨/٣ .
- (٦٤) ابن الخطيب ، الاحاطة : ٣٥/٣ .
- (٦٥) ابن فرحون ، الديباج المذهب : ٢٢٠ .
- (٦٦) ابن بشكوال ، الصلة : ٢٦٢/١ .
- (٦٧) الحميدى ، جذوة المقتبس : ٣٤٥ - ٣٤٦ .
- (٦٨) الضمى ، بغية الملتمس : ١٨٤ .
- (٦٩) المصدر نفسه : ٩٣ .

- (٧٢) المقرئ ، نفع الطيب : ١٦٦/٤
- (٧٣) المصدر نفسه : ٢٠٧/٤ - ٢٠٨
- (٧٤) المصدر نفسه : ٢٩١/٤
- (٧٥) المقرئ وه ، نفع الطيب : ٢٩١/٤
- (٧٦) ابن الخطيب ، الاحاطة : ٤٩٣/١ - ٤٩٤ .
- (٧٧) محمد المنتصر الريسوني ، الشعر النسوي بالاندلس : ١١٩ وما بعدها
- (٧٨) ابن عذارى ، البيان المغرب : ٥٧/٤
- (٧٩) ريبيرا خوليان ، التربية الاسلامية في الاندلس : ١٦٢
- ١٨٠٣ المقرئ : نفع الطيب ج٥ ص ٧٤ ٢٨٦
- (٨٢) نفس المصدا ج٥ ص ٦٧ .
- (٨٣) نفس المصدا ج٥ ص ٧١ .
- (٨٤) نفس المصدر ج٥ ص ٧٤ .
- (٨٥) ابراهيم العكس : التربية والتعليم في الاندلس ص ١٨٦
- (٨٦) سالم : تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس ص ٣٨٢ .